

تصوير الحالات النفسية في قصة القميص

أ. فطيمة سعود

أ. مريم سعود

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الجلفة

مقدمة :

تتوفر قصة سيدنا يوسف عليه السلام على أنماط متعددة للصور يجليها التصوير الفني في قمة التأثير ، فهو أسلوب تعبري لكثير من المباحث القرآنية ، وهو خاصية فنية للقصة يتجلى من خلالها بوضوح ، ومن ألوانه التي يظهر بها ، تخيل العواطف والانفعالات ، فما هي أظهر الأحوال النفسية في قصة القميص ، وكيف كان تصويرها ؟

علاقة التصوير الفني بالقصص القرآني :

«إن الأحداث المثيرة و المواقف الحرجة المتأزمة ، هي النطف التي تتخلق منها القصص...»¹ وهذه الأحداث والمواقف هي جزء من حياتنا لذا « .. أصبحت الفنون كلها اليوم من وراء القصة ، فالتمثيل ، والرسم ، والتصوير ، والموسيقى كلها تتبع القصة ، وتعمل على تجسيد كلماتها ، وتشخيصها وتلوينها وتنغمها حتى ينتظم من هذه الكلمات موكب حافل من مواكب الحياة في جدها و هزلها ، وفي نعيمها و بؤسها. ولهذا كان للقصة على الناس هذا السلطان الذي تجتمع لديه قوى الفنون كلها ، من أجل هذا كانت

القصة في القرآن ركيزة قوية للدعوة الإسلامية، قائمة على الإقناع العقلي، والاطمئنان القلبي² بما تحمله من مثل وتوجيهات، وما تصوره من مشاهد وشخصيات، ومواقف وأحداث. إنها وسيلة ذات هدف مسطر هو تحقيق الهداية من خلال تقديم العبر والعظات المستخلصة من حوادث قد تم وقوعها بالفعل.

غير أنها غرضها الديني هذا لا يتنافى مع توفرها على الجانب الفني الرفيع، من تنوع في الاستهلال، وانتخاب للمشاهد، بل إنها تستخدم هذا الجانب ببراعة كأداة مقصودة للتأثير، وهي إذ ذاك، تعتمد الأسلوب التصويري الذي يعد من أبرز فنياتها، فما من شك أن الحدث الواحد لتختلف صوره حسب الأسلوب الذي يعرض به، لأن طريقة العرض تجعل صورة الحدث ترسم في المخيلة « فترى في كلمات القرآن مشاهد الحياة التي كانت ملتبسة بالحدث، من زمان و مكان وأشخاص وأشياء، وتشهد و ترى وتسمع، وتشارك بعاطفتك وتفكيرك في هذا الصراع الذي كان يدور يوما من الأيام على مسرح معركة من معارك الحياة»³

والقرآن الكريم لا يقدم القصة على شكل أخبار، بل يمررها على الخيال والإحساس وكأنها شريط حي، وإذا كان التصوير خاصة عامة لأغلب مباحث القرآن، فإنه أكثر تجليا في عرض القصة، ذلك لأنها عبارة عن حلقات و مشاهد في سلسلة ذات بداية ونهاية، يتبعها العقل والوجدان معا، فيكون خطاب حاسة

الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية . و التصوير الفني في القصة القرآنية له ألوان ثلاثة يظهر بها هي :

1- قوة عرض الأحداث و إحياء المشاهد

2- تخيل العواطف و الانفعالات

3- رسم الشخصيات

« و ليست هذه الألوان منفصلة ، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف فيسمى باسمه ⁴ »

1- تصوير الحالات النفسية :

و هو اللون الثاني من ألوان التصوير الفني في القصة القرآنية، ويُقصد به تصوير ما يختلج في نفوس الشخصيات من أحاسيس، ومشاعر مختلفة. و قصة يوسف عليه السلام، ثرية بهذا العنصر إذ تعج بالانفعالات و المشاعر من فرح و حزن، و اندفاع و إحجام، و انتقام و عفو، و غضب و رضى، و يأس و أمل، و استعطاف و رعونة، و استبشار و حذر، و حب و كره، و شهوة و امتناع.. و هي حالات نفسية عديدة يظهر بعضها على بعضها حسب الأهمية لذا كان التركيز على الأصل فيها لأن بقية الحالات النفسية ناتجة عنها :

1- تصوير حالات الحب :

إذا كان الحب على المستوى الإنساني هو تعلق شخص بشخص آخر، فإن له مظاهر وأشكال تتباين بين الناس تبعاً لمستوياتهم الفكرية، وتركيباتهم النفسية، و لطبيعة الصلة بين الطرفين، فثمة حب الآباء

لأبنائهم، و حب الأبناء لأبائهم، و حب الإخوة بعضهم بعضاً، و حب المرأة للرجل، و حب الرجل للمرأة، و حب الصديق لصديقه. و قصة يوسف تعرض صوراً للحب من خلال حالتين هما : حب الأب لابنه، و حب المرأة للرجل.

أ- حب الأب :

هو حب جُبل عليه قلب يعقوب عليه السلام، فتدفق حناناً وشفقة على ابنه الأصغر، و خاصة يوسف عليه السلام، هذا الذي خصه الله بفضل منه، فكان يعقوب يحرص على جواره الدائم، خوفاً عليه و حبا فيه، بل إن فراقه لبعض يوم يصيب يعقوب عليه السلام بالحزن، إنه حبّ جم ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف 13] فهو لا يكاد يغفل عنه.

لقد كان هذا الحب المفرط بمثابة عود الثقاب الذي أذكى نيران الحزن التي اكتوى بنارها يوسف عليه السلام في حياته، فمن محنة القذف في الحب، إلى محنة البيع، إلى محنة المراودة، إلى محنة السجن. لقد جرّ هذا الحب على يعقوب نفسه عليه السلام، الحزن الدائم، و المرض المفضي إلى الهلاك ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ [يوسف 85].⁵

بل إنه يفقد بصره نتيجة لتمكن هذا الحب من نفسه، فلقد غدى حُزناً و أسفاً ﴿.. يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف 84]. فالعين مرآة النفس، تعكس الحب،

البغض ، الهدوء ، البله ، الحزن ، المدح ، الرثاء ، الأمل ، اليأس ، الاندفاع ، الرضا ، السخط ، الحيرة ، التمتع ... العين تضحك ، تتحدث ، تفخر ، تسخر ، تخيف ، تحض ، تطمع ، تشتهي ، تبتهل ... إن العين أم الحواس ، تقوم المقدرات عندما تمر على ميزانها ، تساعد الشم على جلاء الرائحة ، تشرك الأذن في تصور المسموع ، تمد اليد و اللسان لتقدير النعومة أو الخشونة ، أو الطعوم ، والمشارب . و يبقى كل جمال ناقص المقدار ما لم تستوعبه العين ، ثم تسمح بأشعته أن تنفذ إلى الكيان الضمني للإنسان ، وعندما يتلقى ، يستضيء جملة بشعاع الجمال ، فيشرح مزاج الإنسان ، كما ينقبض إزاء البشاعة ⁶ ، إن العين أغلى المقتنى لكنها ليست أعز من يوسف عند يعقوب عليه السلام ، الذي لم يعد بعد فراقه من جمال يستحق أن يبصره . إنه يكتف ما يلقاه من كبد ومعاناة في داخله و لا يُظهره للعباد ، ولكنه يثبته إلى رب العباد ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف 86]. هذا الحب يكاد يقتل المُحبَّ و المحبوب معا ، فلا يوسف نجا و لا أبوه نجا .

لكنه بالرغم من ذلك حب خالد لا يموت و لا يفنى ، حتى و لو غاب المحبوب عن عيني حبيبه و استحال الى ذكرى أو طيف :
﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ۚ ۘ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف 94-95].

إنه حب متجدر ملتصق بالفؤاد لا يفارقه ما لم تُفارق الروح الجسد؛ إنه حب ينتعش دوما بيقين اللقاء من جديد ، ويُنصت لصوت القلب ، و لا يحفل بمعطيات الواقع المحدود

﴿..عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
[يوسف 83].

وهو القائل : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ
وَلَا يُيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف 87]. إنه الأمل في الله الذي يستروح به قلبُ
المُحبِ نسائم البرد في رحاب الإيمان، كذلك كان حُبُّ يعقوب
ليوسف عليهما السلام ⁷.

ب- حب المرأة :

لقد جُبِلَت النفوس على حُب الجمال و الافتتان به، و لقد
كان يوسف -عليه السلام- فاتناً، أخاذاً، مبهراً، و لقد أدى هذه
المعاني تصوير حال النسوة حين رأينه، فقلد أصابهن الذهول
لدرجة قطعن فيها أيديهن: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ
اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا
هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف 31].

" لقد تخيلن له صورة ما من الحسن، لكنهن حين رأينه
فاقت حقيقته المرئية كل صورة تخيلنها عنه فحدث لهن انبهار.
وأول مراحل الانبهار هي الذهول الذي يجعل الشيء الذي يطرأ عليك
يُذهلك عما تكون بصدده، فإن كان شيء في يدك شيء قد يقع منك.

و لقد قطعت كلٌ منهن يدها بالسكين التي أعطتها لها امرأة العزيز لتقطيع الفاكهة، أو الطعام ~~القديم~~ لهن، و هل هناك تصوير يُوضح ما حدث لهن من ذهول أدق من هذا القول؟! ⁸. و بعد هذا الفعل الناجم عن إحساسهن بفتنة يوسف عليه السلام، ينطقن مندهشات ﴿.. حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف 31]. و هذا يعني أن يوسف هو الصورة العليا في الجمال والتي لا يوجد لها مثيل في عالم البشر.

وإذا كانت النسوة قد ذهبن للحظة واحدة رأيته فيها، فالأمر أصعب على مَنْ يُقيم عندها وتراه كل حين، إذ ترى إلى جمال شكله، جمال روحه، و هي أدري الناس به، إذ كبر على عينيها و في بيتها، وشبابه يتوهج أمامها يوما بعد يوم.

و يُصوّرُها السياق القرآني في اللحظة الأخيرة، لحظة ضعفها، إذ تهاوت عزميتها فتستسلم لتزوتها الأنثوية العنيفة، فتراوده عن نفسه، غير آبهة بمكانة اجتماعية، و لا بعلاقة زوجية، و لا بجلاء المرأة و كبريائها ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ..﴾ [يوسف 23].

لقد بلغ الحب شغاف قلبها ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا نَنَاصُهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف 30]، إنه حبٌ أعمى، جعلها جارية و هي الحرة، فوقفت موقفا مهينا استرخصت فيه جمالها و سلطانها أمام سلطان

حبها ليوسف عليه السلام، لقد امتهنت دلال المرأة، و عفاف الحرة، و جاء السيدة. فَعَلْتُ كُلَّ ذَلِكَ لِأَجْلِ حُبِّ يَوْسُفَ⁹.

لقد دبرت للأمر و راودت يوسف "بما أَلَقْتُ إِلَيْهِ مِنْ كَلِمَاتٍ وَإِشَارَاتٍ وَ تَلْمِيحَاتٍ. وهي التي أحكمت إغلاق الأبواب، فكانت تلك دعوة منها إليه، ثم إنها حين رأت أَنَّ كُلَّ هَذَا الْإِغْرَاءِ، لَمْ يَدْعُهُ إِلَيْهَا، و لم يقرّبه منها، دعتة إلى نفسها صراحة: ﴿وَقَالَتْ هَيْت لَكَ﴾.. أي ها أنا ذا فأقبل .. و هذا ما لا تفعله الحرة أبدا .. إنها مهما استبد بها الحب و الوجد- لا تلقى الرجل بهذه الصراحة، بل تأبى عليها طبيعة الأنثى إلاَّ أَنْ تُغَالِبَ أَشْوَاقُهَا حَتَّى تَكُونَ هِيَ الْمَطْلُوبَةُ مِنَ الرَّجُلِ لَا الطَّالِبَةُ لَهُ"¹⁰.

ويدفعها الحب إلى الماضي قُدمًا فيما أرادت ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا﴾.. لقد قصدت وعزمت على مخالطته¹¹. و بالرغم من تنازلاتها وإغرائها تُجابه بالإعراض عنها، والفرار منها: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف 25]، إنها لن تقبل بالهزيمة فيها هي تلحق به في حركة عنيفة فتشق عليه ثوبه، ﴿وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ فلما أدركت استعصام يوسف عليه السلام و منعه الشديدة ورفضه لحبها، في هذه اللحظة ينقلب حبها غضبا و انتقاما ﴿.. قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف 25]، فهي أمام زوجها تدفع التهمة عنها، إنها تريد أن تسجنه و تعذبه لقاء إعراضه عنها في مقابل ذلك الحب الجارف الذي تكنه له. إنه حب لا شرعي ومؤذ.

و تمضي في محاولاتها بعد هذا الموقف، فهي هي تساومه هذه المرة، أمام النسوة، جهرة، دونما حياء. بل إنها لتفخر بهذا الحب و تتبجج به أمام بنات جنسها، مستغلة انبهارهن بجماله، فتقول بأعلى صوتها: ﴿.. فَلْيَكُنْ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف 32] قالت (ذَلِكَ) و لم تقل: (هذا)، و هو حاضرٌ رفعا لمنزلته في الحسن، و تؤكد أنها هي مَنْ رواده عن نفسه، و أنه امتنع امتناعا شديدا (استعصم) لكن الحب-هذه المرة- بالأمر و ليس بالإغراء، إذ لم يُجدِ الإغراء نفعا معه، إنها لا تنفك تبحث عن طريقة للإيقاع به، تهدده بالسجن و الصغار والتحجير إن لم يمثل للحب بالإكراه.

و إذ إن يوسف عليه السلام، رفض هذا الحب الحرام، يصيبه وعيدها، فيسجن لبضع سنين^{1 2}.

و يبدو أن جذوة الحب في قلب امرأة العزيز قد انطفأت أخيرا بعد مُضي سنوات من سحن يوسف عليه السلام، فَمِنْ تهالك الجسد و الإغراء، إلى الانتقام، إلى الاعتراف بالحق والبرئة لساحة يوسف عليه السلام مما ألصقته به مِنْ تُهمة باطلة، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنْ إِذْ رَاودْتُنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف 51].

وقد صوّر اللفظ (خطب) خطورة الأمر، فـ"لخطب هو الحدث الجلل غير العادي ... وهو يدل على أن الملك سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتز لها واعتبرها خطبا، و (حصحص) أي ظهور حصّة الحق على حصّة الباطل" ¹³، "بمعنى أنه ثبت واستقر" ¹⁴ إنها لجراءة منها و شجاعة أن تعترف أمام الملك وأمام الملأ بهذه الشهادة المخرجة لها، و تؤكد أنها هي التي راودته عن نفسه، و أنّه من الصادقين حين قال ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ [يوسف 26]، ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف 52]، أي هذا الاعتراف منها لأجل أن يعلم يوسف -الذي شغفها حبا- أنها وإن ادّعت عليه فيما مضى و هو حاضر، فإنها هذه المرة لم تخنه و هو غائب في سجنه والتعقيب الصادر منها ﴿.. وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف 52]، يفيد يقينها أنّ الحق لا بد مآله إلى انتصار و إظهار، حتى وإن انتصر الباطل فهو انتصارٌ إلى حين.

وُضِيفَ ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف 53]، فالنفس لا تنفك تأمر بالسوء، صوّر هذا المعنى اللفظ ﴿أَمَّارَةٌ﴾، هذه النفس التي لا يفلت من وسوستها إلا من خصّه الله بالرحمة منه، ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهي لفظة إيمانية منها ¹⁵، و ربما تضمن ذلك إشارة منها كي يغفر لها العبد اقتداء برب العباد الغفور الرحيم و ربما انصرف الفكر إلى الاعتقاد بأنها اضطرت للاعتراف أمام

شهادة النسوة لدى الملك، وتحقيقه في القضية، لكن المعروف عنها أنها امرأة قوية، تجاوزت أصعب المواقف بنجاح وقلبتها لصالحها، ولقد كانت تستطيع المضي في إنكارها، أو إختراع أية كذبة، وهي الكائدة الذكية، لكنها لم تفعل، بل شهدت بالحق لأنها أرادت ذلك نصرة للحق، كما يشي السياق بسبب آخر "هو حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبأ بفتنتها الجسدية وجاهها، أن يحترمها تقديراً لإيمانها ولصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ثم تمضي في هذه المحاولة والعودة إلى الفضيلة التي يحبها يوسف عليه السلام، ويُقدرها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ و تمضي خطوة في هذه المشاعر الطيبة ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إنها امرأة أحبّت، امرأة تُكبر الرجل الذي تعلقت به.. فهي لا تملك إلا أن تظلّ معلقة بكلمة منه، أو خاطرة ارتياح تحس أنها صدرت عنه" ¹⁶ فالقليل منه كثير، وإنها لما يجب تحب. إنّ اعتراف امرأة العزيز كان دافع الإيمان والحكمة، والتطور في نفسيّتها والإحساس بالذنب، وقد صوّره السياق القرآني وهو يفيض تألماً لما فات، وأنه ليس أسلوباً جديداً من أساليبها لتظفر بيوسف بطريقة أخرى غير الجسد فذلك "لا يتناسب مع طبيعة مسيرة الشخصيات كلها في قصة يوسف،

والتي تسير كلها في خط التحسن والنمو إلى الاكتمال في الأخلاق
والنفسية" 17 .

2- تصوير حالات الغيرة :

لقد حزّ في نفوس الإخوة العشرة، حُبّ أبيهم الشديد
ليوسف عليه السلام في حين يرون أنّهم الأحق والأجدر والأولى
بهذا الحب كونهم عَصْبَة ، "و العصبَة هم الجماعة الذين تعصب
بهم الأمور وتجاوبه بهم الشدائد" 18 ، في حين أن أخاهم يوسف
عليه السلام غلام صغير لا نفع منه فأى عقل في هذا؟! هكذا
كانوا يفكرون ، هكذا كانوا يُقدِّرون الأمور ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ
وَإِخْوَتُهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾
[يوسف8]، أي إنه مخالف للصواب ، ضالٌّ في تفضيل حب يوسف
-عليه السلام- على حبهم.

لقد تراكم هذا الاستنكار والاستياء في نفوسهم ليصبح
غِيْرَةً، فحسداً، فكرهاً، فحَقْدًا. بل إنه ليصل إلى أن يكون تصفية
جسدية: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ [يوسف9]، ثم تُدرك الشفقة أحدهم
و لعلّه الخوف من إثم القتل، فيُشير على إخوته بالعدول عن
القتل إلى التغيب: ﴿ قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي
غِيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴾ [يوسف10].

لقد كان دافع هذه الغيرة، الأنانية بالرغبة في الاستحواذ على
حب الأب، والإحساس الواهم بتهديد الكيان، والاعتقاد بأن الآخر

منازع على المكائنة، و الحاقدا يرى أن مشكلته نزول بزوال المحمود عليه:
﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ
بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف9].

و هي غيرة تأصلت في نفوسهم، فلا تنطفئ جذوتها إلى حين، بل
إن ذكرى يوسف - عليه السلام - فحسب كفيلا يلهابها ثانية: ﴿ قَالُوا
تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾
[يوسف85]، إنه الغضب واللوم بدل الشفقة على الوالد و مواساته،
والغيرة العمياء تتفجر كرها وحقدا دفينين في كل مناسبة تسنح: ﴿ قَالُوا
إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ [يوسف77]، إنها شهادة الزور
والاتهام بالباطل دائما بدافع الغيرة^{9 1}.

3- تصوير حالات المفاجأة :

ينظر حازم القرطاجني (ت684 هـ) إلى الصورة من جهة تأثيرها
على النفس ، و من خلال ما تبثه من مسرة أو إشفاق
أو فجاءة ، يقول : « فأما ما يجب اعتماده في تحسين موقع الأسلوب من
النفوس ، فذكر الأحوال الطيبة و السارة وأجدرها بيسط النفوس ، و ذكر
الأحوال الشاجبة بالنفوس ، و أجدرها أن ترق لها النفوس ، و ذكر أدعى
الأحوال الفاجعة إلى الإشفاق والجزع حيث يقصد ذلك . »²⁰

لذا فإن المفاجأة عنصر نفسي هام، يثير الانفعالات،
ويشد الانتباه، و يكسر الرتابة، و هو كذلك على مستوى قصة يوسف
عليه السلام، فضلا عما يؤديه من تشويق إلى متابعة الأحداث و معرفة

إلام ستؤول، مما يجعل المتلقي أكثر تفاعلاً مع القصة وكأنه يعيش أحداثها مع شخصياتها فيندهش معهم. ويمكن القول أن قصة يوسف - عليه السلام - ثرية بهذا العنصر. ويمكن تقسيم المفاجآت الواردة فيها تبعاً لطريقة القص كما يلي:

أ- تفاجؤ شخصيات القصة دون القارئ :

1- مفاجأة يعقوب المحزنة بفقد يوسف عليه السلام:
﴿ وَجَاوُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف 16-17]. وهي فاجعة أكثر منها مفاجأة^{1 2}.

2- بُشِّرَى سارة عند عثور السيارة على يوسف عليه السلام:
﴿ ... قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف 19].

3- تفاجؤ الإخوة برد بضاعتهم في رحالهم : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. ﴾ [يوسف 65]

4- مفاجأة الأخ السارة بلقيا أخيه يوسف عليه السلام:
﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف 69].

5- مفاجأة إخوة يوسف - عليه السلام - بنسبتهم إلى السرقة: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا تَفْقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٤﴾ قَالُوا

ثَالِهٌ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يوسف 70-76].

6- تفاجؤ يعقوب - عليه السلام - بأمر فقد ابنه الثاني:

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَيْكُم فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ [يوسف 81-83] 22.

7- تفاجؤ الإخوة بمعرفة حقيقة شخص العزيز بأنه يوسف عليه

السلام: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ.. ﴿٨٥﴾ [يوسف 89-90].

ب- تفاجؤ الشخصيات و القارئ معا :

1- تفاجؤ الجميع بتصريح امرأة العزيز السافر ليوسف عليه السلام

و دعوتها إياه لارتكاب الفاحشة: ﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف 23].

2- تفاجؤ الجميع بمقدم العزيز: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ..﴾ [يوسف 25].

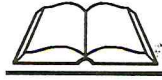
3- تفاجؤ النسوة بخروج يوسف عليه السلام عليهن،
والانبهار بجماله الفتان : ﴿.. وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَهُنَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾
[يوسف31]

4- تفاجؤ يوسف عليه السلام بكيد النسوة له : ﴿قَالَ رَبُّ السِّجْنِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ..﴾ [يوسف33]

5- تفاجؤ يوسف عليه السلام بنسبة السرقة إليه من طرف إخوته:
﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف77]^{2 3}

إن قصة يوسف عليه السلام "لا تسجل واقعا جرى فحسب ، ولكنها
تتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود، إنها تتصر للإيمان ، للصبر،
للعفاف، للأمانة للإخلاص" ^{2 4}.

وفي الآن ذاته تكشف بشاعة الخيانة والكذب والغيرة وكل المشاعر
السلبية.



خاتمة :

وهكذا تتنوع الصور النفسية في قصة القميص ، وتتراوح بين مشاعر : الحب ، والغيرة ، والمفاجآت ، خيلة العواطف والانفعالات الشخصية ، مظهرة مواطن قوتها وضعفها ، وفي قصة يوسف انتصار للخلق والفضيلة ، وقهر للهوى والشهوة ، فلقد انتصر يوسف في معركته رغم دواعي الإغراء ، وانتصرت امرأة العزيز على الهوى الذي استبد بها أول الأمر ، فاعترفت بخطيئتها ، وانكشف أخيرا لإخوة يوسف عليهم السلام ، ما كانوا فيه من غيرة وحسد ، فرجعوا تائبين.

الهوامش :

¹عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني في منطقته ومفهومه . دار الفكر العربي . القاهرة . ص 14 .

²المرجع نفسه . ص 7 ، 8 .

³المرجع نفسه . ص 153 .

⁴سيد قطب : التصوير الفني في القرآن . دار الشروق . ط 13 . سنة 1993 . ص 156 .

⁵أنظر سيد قطب في ظلال القرآن . ص 1975

⁶على شلق : العين في الشعر العربي . دار الأندلس . ط 1 . سنة 1984 . ص 05 .

⁷أنظر : أحمد نوفل : سورة يوسف دراسة تحليلية . ص 51

- ⁸ محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، ج 11 ص 6935
- ⁹ انظر عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني ص 425
- ¹⁰ المرجع نفسه، ص 425
- ¹¹ الزخشري: الكشف، ص 311
- ¹² انظر سيد قطب: في ظلال القرآن، ص 1985
- ¹³ محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي ص 6990-6989
- ¹⁴ الزخشري: الكشف، ص 327
- ¹⁵ ثمة اختلاف حول نسبة الآيتين (52 و 53) إلى يوسف أو إلى امرأة العزيز، من أنصار الرأي الأول عبد الكريم الخطيب انظر القصص القرآني في منطقته ومفهومه، ص 454 ومن أنصار الرأي الثاني: سيد قطب، انظر " في ظلال القرآن، ص 1995
- ¹⁶ سيد قطب: في ظلال القرآن، ص 1995، 1996
- ¹⁷ أحمد نوفل: سورة يوسف دراسة تحليلية، ص 207
- ¹⁸ الزخشري: الكشف، ص 304
- ¹⁹ انظر عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني، ص 477، 412
- ²⁰ حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، ص 357.
- ²¹ لمزيد من التفصيل انظر: يوسف القرضاوي: الصبر في القرآن الكريم، مكتبة الشركة الجزائرية، قسنطينة، سنة 1988، ص 74
- ²² لمزيد من التفصيل انظر المرجع نفسه، ص 75 و عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني، ص 481-462
- ²³ انظر: يوسف القرضاوي: الصبر في القرآن الكريم، ص 77-80
- ²⁴ أحمد نوفل: سورة يوسف دراسة تحليلية، ص 48